خالد فقد عجز عن ضبط نفسه فأرسلها على سجيتها، وعن إمساك دموعه ففرق ما بين جفونه، وإذا هو ينتحب، وإذا دُمُوعه تنهمل على خديه انهمالًا.

فلما رأى سليم ذلك من أمره عاد إلى المألوف من عُنفه الظاهر وجفوته البادية، فأغرق في الضحك وهو يقول: ما رأيت كاليوم رجلًا يشبه النساء وامرأة تشبه الرجال، انظر أيها الأحمق إلى امرأتك وتعلَّم منها كيف يكون لقاء المحن؟! وكيف يكون الثبات للخطوب؟! ألا تستحيي أن يدخل بنوك وأن يروك في هذه الحال! ثم التفت إلى «مُنى» وهو يقول: جفِّفي له دموعه أو ابغيه منديلًا يجفف به هذه الدموع، ولكنكما لما تسألاني كيف كان بدء هذه القصة التي انتهت بنفيسة إلى ما هي فيه؛ فإنَّ هذه القصة مؤلمة حقًّا، ولكن فيها مع ذلك كثيرًا من الغرابة وكثيرًا من الفكاهة أيضًا. قالت منى: من الفكاهة؟! قال سليم: نعم من الفكاهة. أتعرفين من دفع نفيسة إلى هذه الحال؟ قالت منى: من دفعها إلى هذه الحال؟ قال سليم: أتذكرين أم رضوان أم لعلك نسيتها؟ قالت منى: أم رضوان! وكيف أنساها، ولم يبعد عهدي بها بعد. قال سليم: فهي التي فتحت لنفيسة هذا الباب المُنكر الذي لا نعرف كيف نخرجها منه. قالت منى: وكيف ذاك؟

قال سليم وهو يلتفت إلى خالد: إنك لتعرف دار أبيك في ذلك اليوم من الشهر حين يُهيأ الخبز، وإن أم رضوان هي التي تخبز لهم، فتذكر إن كنت ناسيًا، كيف يكون الاستعداد لهذا اليوم: لا تكاد الشمس تجنح إلى مغربها حتى تكون إحدى نساء الدار مَشغولة بإعداد الخميرة، فإذا تقدَّم الليل شيئًا تعجل النساء نومهن ونامت في الدار أم رضوان، فلم يذقن النوم إلا غرارًا؛ فهن ينهضن إذا انتصف الليل أو قارب ثلثيه، وهنَّ يسرعن إلى عجينهن يُنفقن فيه الساعة أو أكثر من الساعة، يتنافسن فيما يبذلن من جهد، لكل واحدة منهن وعاؤُها الذي تعجن فيه، حتى إذا أتممن ذلك وفرغن من تنافسهن وما يكون بينهن من حديث يهمسنه همسًا أو غناء يُخافتن به مَخافة أن يصل إلى آذان الرجال، والجاهلات مع ذلك لا يلحظن أن ما يُحدثن من الصوت في أوعيتهن كاف لإيقاظ المغرقين في النوم العميق، ولكنهن لا يتحدثن إلا همسًا، ولا يتغنين إلا إسرارًا، فإذا فرغن من عملهن ثبن إلى مضاجعهن يلتمسن فيها علالة من نوم ريثما يرتفع العجين، وتنهض إحداهن قبل صاحباتها لتُحمي التنور، فتمتلئ القاعة وهجًا، وتمتلئ الدار دُخانًا، ويهبُّ أهل الدار مع الفجر: فأمَّا الرجال فيُصَلُّون ويتعجلون قهوتهم، ويغدون مع الطير، وأمَّا النساء فيسرعن أو يبطئن إلى قاعة التنور؛ فَهُنَّ قد اتخذنها موعدًا للقاء. هنالك تجلس أم رضوان إلى جانب الفرن لتُنضج الخبز ترقصه على مطرحتها حينًا ثُمَّ تدفعه إلى